Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلومِ الإنسَانيّةِ

Vol. 30/ No. 3/ 2022 المجلد 30/ العدد 3/ 2022

أنثروبولوجيا الرواية العراقية رواية "وشم الطائر"لـ "دنيا ميخائيل" إنموذجاً

زينب محمد عبود

مديرية تربية بابل / إعدادية الشموس

Zainab19.Mohammed.A@gmail.com

تاريخ استلام البحث: 28 /2/ 2022 تاريخ قبول النشر: 1/ 3/ 2022 تاريخ نشر البحث: 13/3/ 2022

المستخلص:

قراءة النص من منظور الهوية الثقافية التي يتمثلها و يمتثل إليها، وتأويل علاماتها المركبة مع تلك الأنساق هي القراءة الأنثروبولوجية؛ فملاحظة الأنثروبولوجي تتيح متابعة ملامح ثقافة المجتمع؛ هذا ما يحتم على الأنثروبولوجي أن يستدعي معارف متعددة من التاريخ وعلم النفس واللسانيات وعلم الخطاب ومن السيمولوجيا والميثولوجيا؛ وتبعاً لذلك فالنص الأدبي بما يحتويه من رموز هو دال للثقافة التي ينتمي إليها. لذلك تركز الأنثروبولوجيا الثقافية على الإنسان والنظم الثقافية من قيم و تصورات و معايير اجتماعية ومظاهر ثقافية أخرى، وهي مختلفة من مكان إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر.

الكلمات الدالة : الأنثروبولوجيا، الثقافة، المجتمع، الميثالوجيا، الرواية، الموروث

The anthropology of the Iraqi novel The novel "Tattoo the Bird" by (Dunia Mikhail) Model

Zainab Mohammed Abboud

Babel Education Directorate / Al-Shomoos Preparatory School

Abstract:

Reading the text from the perspective of the cultural identity that it represents and complies with, and the interpretation of its composite signs with those formats is anthropological reading. An anthropological observation allows following up on the features of a society's culture; This is what necessitates the anthropologist to call upon various knowledge's from history, psychology, linguistics, rhetoric, and from semiology and mythology; Accordingly, the literary text, including the Horal symbols of the culture to which it belongs, contains. Therefore, cultural anthropology focuses on the human being and cultural values, systems, perceptions, social norms and cultural manifestations, which are different from one place to another.

Keywords: anthropology, culture, society, metallurgy, novel, heritage

مهاد منهجي:

اقترن البحث في شؤون الإنسان و المجتمعات الإنسانية بوجود الإنسان مذ وعى ذاته وتفاعل مع الغير، وأخذ يبحث عمّا يفك طلاسم هذا الذات سواء في محيطها الخاص أم في فضاء المجتمع الإنساني الذي تحل فيه، وهنا يبدو أثر الانثروبولوجيا؛ والمسوّغ هو إرتباطها الوثيق بالمجتمع وبما تَعكس بنيته الأساسية والقيم السائدة فيه. ذلك العلم الموغل في القدم وصولاً إلى هوميروس والثقافة اليونانية، في حين من يؤرخ له بعصر النهضة.

في هذه الورقة البحثية نحاول التعريف بفرع معرفي تجذر من شجرة الأنثروبولوجيا؛ فكان حقلاً معرفياً خصباً تتوغل مجساته في نظمٍ حياتية مهمة، ما سوّغ له أن يملك اجابات عن اسئلة طالما أقضت مضجع الإنسان فهي تبحث في البؤر الثقافية وآلية التنوع الثقافي وتساهم في تشكيل مختلف الصور الثقافية. وتلك أبرز مهام الأنثروبولوجيا الثقافية.

إشكالية الدراسة تتمثل في الخوض في الانثروبولوجيا الثقافية بمقاربة منجز روائي عراقي تمثّل برواية "وشم الطائر" لروائية عراقية اختصرت عوالم تاريخ مؤلم وحزين أُضطهدت فيه المرأة العراقية الإيزيدية من اللاتنظيم التكفيري "داعش"، وهي لم تقف عند ذلك بل كان لها أن ترصد تحولات عالم إنساني مليئ بالجمال والإضطراب معاً، في بقعة جغرافية صغيرة تتمثل في قرية حليقي في مدينة الموصل؛ فأشرت المبدعة "دنيا ميخائيل" أبرز القيم والمعتقدات والنظم الثقافي لهذا المجتمع، وذاك ما ينماز به الأدب الروائي بعدّه نوعاً من الانشغال اللصيق بالإنسان وما يصدر عنه من تصرفات تعكس قيم وأنظمة ثقافية وذلك ما ستقف عنده هذه الدراسة.

تتهيكل هذه الدراسة في تمهيد منهجي لتغدو في ثلاثة مباحث:

الأول منها يقف عند تحديد المفاهيم، فيما ينطلق المبحث الثاني إلى مسالة البعد الأنثروبولوجي حيث تداخل الأصول وتعدد الفروع. ولإضفاء الصبغة الأكاديمية على

الدراسة جاء الجانب التطبيقي في المبحث الثالث: حيث "وشم الطائر" دراسة أنثروبولوجية ثقافية .

المبحث الاول: تحديد المفهوم و طبيعته

أنثروبولوجيا " Anthropolog" كلمة مشتقة من الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين "Anthropos" ومعناه " الإنسان"، و"log", ومعناه "علم أو دراسة منهجية "وبذلك يتحدد المفهوم من حيث اللفظ بحدود علم الإنسان أي العلم الذي يدرس الانسان [1،ص56].

وتعرف الأنثروبولوجيا أو علم الأناسة بصورة مجملة و شاملة بأنّها "علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً" [1،ص56]. والسؤال هنا ولتخصصها بدراسة الإنسان هل تدرس هذه الكائن ككائن وحيد بذاته أم بوصفه كائناً اجتماعياً؟

والإجابة صارمة في أنها لا تدرسه بوصفه كائناً وحيداً ومنعزلاً عن بني جنسه، إنّما تدرسه بعدّه كائناً اجتماعياً بطبعه يحيا في عائلة يجمعها مع غيرها رابط القرابة، والمعتقدات، والأقتصاد في مجتمع معين.

لذلك تُحد الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي يعيش في

مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، وكذلك يعني بدراسة الخصائص الاجتماعية والثقافية للإنسانية جمعاء، وللمجتمعات القريبة من الطبيعة "البدائية" والمجتمعات الحديثة المعاصرة.[2،ص7] فالأنثروبولوجي الأمريكي "مارفن هاريس"يحد مفهوم الأنثروبولوجيا في أنه: العلم الذي يدرس الشعوب البدائية والشعوب الحديثة والأساليب التي يعتمدونها في معيشتهم [3،ص7] .

وتأسيسا على ما سبق فالمفهوم يتأرجح متبايناً بتباين مناهج الباحثين والمدارس النقدية والفكرية التي ينتمون إليها، إلاّ أن ما ينعقد عليه الإجماع هو أن الانثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان وأوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين غيرة من بني البشر من جهة، وبينة وبين الكائنات الحية الأخرى من جهة ثانيه [4، ص16].

وقد حددت الباحثة الأمريكية "مارغريت ميد "طبيعة علم الأنثروبولوجيا وأبعاده بقولها: "إننا نصنّف الخصائص الإنسانية للجنس البشري "البيولوجية والثقافية" كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطوّرة كما نهتم أيضاً بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتحليلها، إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان وإبتكاراته ومعتقداته و وسائل اتصالاته " [4،ص16].

وبذلك تقدم "ميد" خطة عمل الباحث الأنثروبولوجي وذلك بالتنقل والانتقال من البحث الميداني ومعايشة الباحث للمجتمعات التي تشكل عينة الدراسة إلى المساحة التطبيقية في نهج وأسلوب شمولي يستثمر الإجراءات المضمونية والشمولية، ويعتمد خارطة طريق يرسم حدودها أدب الرحلات والاستكشافات الجغرافية في التعرف على مجتمعات جديدة، كما وتفيد في التاريخ الحديث من الصدمات الكبرى في التاريخ، وكلّ ذلك أدى إلى ظهور أعمال يفيد منها الباحث الأنثروبولوجي، مثلما يفيد من التقنية الحديثة التي ربطت العالم بشبكة تكنولوجية وثيقة حولت العالم إلى سوق كبيرة مفتوحة. ولعّل ما شهده القرن العشرين من حروب الإبادة الجماعية التي عانى منها المجتمع العراقي وعاش ويلاتها مجبراً حين خاض الحروب الطاحنة التي فرضت على الشعب العراقي، نقول لعّلها ليست ببعيدة عن ذلك، بل فيها ما يقدم مادة للأدب و للأنثروبولوجي الذي يستقي مادته من الأدب والواقع.

وكانت جرائم الفكر التكفيري الداعشي أنموذجاً لما عاشه الإنسان العراقي في القرن الحادي والعشرين. وقدم مادة للباحث الانثروبولوجي وقف عندها الابداع والمبدعين في شتى المجالات الابداعية. في التعرف على مجتمعات جديدة، كما ويفيد عبر التاريخ من الحروب والصدمات الكبرى؛ فهو مرتبط بغاية استعمارية أو تبشيرية حين يستعان به في دراسة المجتمعات التي يراد استعمارها، لكنه سرعان ما تخلص من ذلك القيد الرابط وأخذ يرسم طرائقة ومناهجه وتوجهاته، حتى أفاد من صلات القربى مع العلوم الأخرى بما أعانه على أن يتشعب ويتفرع في فروع عديدة [5، ص9] مثلما يفيد من التقنية الحديثة.

المبحث الثاني: مسالة البعد الانثروبولوجي و تداخل الأصول و تنوع الفروع

ارتباط الأنثروبولوجيا بالانسان جذراً ونشأةً وتطوراً، وموضوعاً للدراسة سوّغ اقترانه بالعلوم الإنسانية التي هي أحدث عهداً من العلوم الطبيعية، وما زاد من اهميته تمدده في تربة علوم معرفية منها الطبيعة ومنها الاجتماعية فضلاً عن العلوم الإنسانية، وتواشجت موضوعاته مع موضوعات هذه العلوم –لاسيما– علم الاجتماع،

وعلم الأحياء، والفلسفة، وعلم النفس. كما تعددت مناهجه النظرية والتطبيقية تبعاً لتعدد تخصصاته ومجالاته التي يخوض فيها.

وقد حتم اقتران الانثروبولوجيا بالعلوم الانسانية أن تهتم بدراسة قيم الانسان الجمالية منها والدينية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية، ومن هنا فهي أكثر تماساً مع حياة البشر وتعدى اهتمامها ليتناول العمليات التي أحدثت تحولاً في تركيب السلالات أو النوع واللغات والحضارات، وأنواع الاتجاهات النفسية في مختلف الحضارات وتركيب الشخصية التي تعُبر عنها وعلاقة الفرد بالمجتمع [6، ص8] .

ولا تحدد مساحة الانثروبولوجيا بهذه الحدود بل تمتد لتصل إلى عنايتها بالأحداث التاريخية التي آلت إلى الظروف الحاضرة، وعوامل تباين أشكال الحياة الاجتماعية سواء اشترك في تكوينها عامل واحد أم عدة عوامل[6، ص7] ما يعني أن الانثروبولوجيا يرسل مجساته لتحيط بدقائق حياة الانسان وثقافتة ومستويات تعاملاته مع الآخرين.

فثّمة تداخل بين الأنثروبولوجيا ولم الاجتماع يبيحه اقترانهما بالإنسان، على أن هذا الترابط لا يقف عند حدود المنطلق متمثلاً بموضوع الدراسة بل يتعدى ذلك إلى الاجراء المنهجي إلى حد تسمية الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع المقارن؛ بالرغم من انشغالها بالجانب الحضاري حين يتعلق الأمر بالإنسان؛ فعلم الاجتماع أحد العلوم الإنسانية التي عرفت في أواخر القرن التاسع عشر وهو يدرس العلاقات بين الأفراد كأفراد مؤسسين للجماعة مركزاً على سلوك الأفراد وتأثير البيئة بأصنافها "اجتماعية، اقتصادية، ثقافية "في تكوين الشخصية وقد حتم وقوف علم الاجتماع عند التفاعل الاجتماعي بين أعضاء الجماعة خلق آصرة تداخل بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا؛ فكلّ منهما يتناول البناء الاجتماعي والوظائف الاجتماعية بالبحث والدراسة [7، ص44].

ولا يمنع هذا التداخل من وجود الحدود المائزة بين العلمين فعلم الاجتماع مثلاً يركز على المشكلات الاجتماعية في المجتمع الواحد كما يدرس الطبقات الاجتماعية في هذا المجتمع أو ذاك من المجتمعات الحديثة، بينما يحيط علم الإناسة في دراسته بالمجتمعات البدائية "الأولية" فضلاً عن المجتمعات المتحضرة "المعاصرة". وتتركز دراسته في الغالب على التقاليد والعادات والنظم والأنماط السلوكية التي ينتهجها شعب من الشعوب في حين ينماز علم الاجتماع بعنايته بظواهر أو مشكلات مستقلة بذاتها من قبيل الطلاق، الجريمة، البطالة، الإدمان، والأسرة[8، ص1].

ولا تقتصر التعددية على الأصول التي تتداخل معها الأنثروبولوجيا والتي تكون من علامات تميزّ هذا العلم الذي يرسل مجساته مع منظومة العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى ما نتج عنه علاقة التأثير والتأثر بينهما فضلاً عن النظرة الشاملة التي غدت علامة مائزة تميّز المنهج الأنثروبولوجي وتتطلب الإحاطة بدارسة كلّية متكاملة تحيط بابعاد الموضوع الخاضع للدراسة.

نقول فضلاً عن التعددية في الأصول فإن هذه السمة طالت الفروع أيضاً إلاّ أنّ ما يميز هذا التنوع للفروع هو عدم الثبات فهو وليد التطورات البحثية الميدانية، والنظرية، والتطبيقية. وتحدد الدراسات الأمريكية هذه الفروع بفرعين رئيسين: [9، ص14].

1. الأنثروبولوجيا الطبيعية: وتهتم بالجانب العضوي الطبيعي البايولوجي للإنسان وترصد البناء التطوري له، وتطور الخصائص البايولوجية التي يتباين فيها البشر القدامى والمحدثين [10،ص18-19]، وهذا يعني يشخص عناية الدراسة الأنثروبولوجية بدراسة دراسة الانسان الفرد بوصفة نتاجاً لعملية عضوية، كما أنها تدرس تطور النوع البشري وعلم الوراثة، فضلا عن ارتباط الانثروبولوجيا العضوية بعدد من العلوم الطبيعية مثل علم الأحياء والتشريح وعلم الوراثة واعتمادها الوسائل العلمية في البحث.
2. الأنثروبولوجيا الثقافية: ولعلّ أقدم تعريف للثقافة هو ما وضعه "إدوارد تايلور "الذي يحد الثقافة بإنها: ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها مما يكسبه الإنسان من القدرات بوصفه عضواً في المجتمع [11، ص13].

ويترتب على ذلك أن تبحث الانثروبولوجيا الثقافية في الثقافة الخاصة بمجتمع ما وتراثة الاجتماعي وذلك بتركيز الإهتمام على سلوك أعضاء هذا المجتمع، فالأنثربولوجيا الثقافية تهتم بدارسة الإنسان في منظومته الثقافية وتعالج تباين سلوكه ونشاطه اليومي وفق تباين ظروفه المحددة لدوره في المجتمع [12،ص48-50]. وهي لا تعني بالموروثات الشعبية مثل التقاليد والاعراف فقط بل هنالك جوانب مهمة متعلقة بما هو ديني وسياسي واجتماعي.

وتعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكياته النابعة من ثقافته. وهي تدرس الشعوب القديمة ولا تقف عندها بل تدرس الشعوب المعاصرة أيضاً. فهي تهدف إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها كما تهدف إلى بحث عمليات التغير الثقافية والتمازج الحضاري وتحديد الخصائص المتشابهة بين ثقافات الأمم وتفسير المراحل التطورية الثقافية في مجتمع معين [13، ص21].

عُرفت الأنثروبولوجيا الأمريكية على أنها أنثروبولوجيا ثقافية وارثة لتايلورو هردر، في حين تقدم النسخة البريطانية نفسها بالانتساب إلى دوركهايم ومورغان بمعنى إنها أنثروبولوجيا اجتماعية، وقد اقتصرت في فرنسا حتى ستينيات القرن العشرين على الأنثروبولوجيا الطبيعية إلى أن جاءت الأنثروبولوجيا البنيوية التي وضع أسسها كلود ليفي شتراوس [5، ص55].

المبحث الثالث: "وشم الطائر "دراسة أنثروبولوجية ثقافية.

القراءة الأنثروبولوجية هي قراءة النص من منظور الهوية الثقافية وتأويل عناصرها المركبة من تلك الأنساق، فملاحظة الأنثروبولوجي تتيح متابعة ملامح ثقافة المجتمع، ولهذا يستدعي الأنثروبولوجي معارف متعددة عبر التاريخ وبالإفادة من علم النفس، واللسانيات، وعلم الخطاب، ومن السيمولوجيا، والميثولوجيا، وتبعاً لذلك فالنص الأدبي بما يحتويه من رموز هو دال للثقافة التي ينتمي إليها.

ولكون النص الأدبي خطابا يملك آلية داخلية، إلاّ إنّه يرتبط بالسياق الذي شهد ولادته مما دفع الأنثروبولوجين إلى الأفادة من النتاجات الأدبية، ذلك أن الأنثروبولوجي يكتشف ملامح المجتمع عن طريق الأدب، فالعلاقة بين النصوص الثقافية والأدبية بخاصة وبين السياقات الاجتماعية التي انتجتها واضحة وبما يشكل علامة فارقة فالأدب مجال أساسي لمعرفة الجانب الثقافي والاجتماعي [14،ص16].

فنلمح ثمّة مساحة مشتركة بين الدراسة الأنثروبولوجية والإبداع الأدبي، والعمل الروائي خاصاً؛ والمسوّغ في ذلك إنّ كليهما يتزود عناصره ومادته الخام من المجتمع؛ فالظواهر الإجتماعية موضوع مثمر للأنثروبولوجيا، وهي المعين الذي يغترف من الأديب والروائي تحديداً [5، ص214] .

وهذا ما افادت منه الروائية العراقية "دنيا ميخائيل "حين اغترفت المادة الخام لروايتها من واقع المجتمع الموصلّي من جماعة عرقية دينية كردية وتحديداً من البيئة الإيزيدية في قرية حليقي تلك القرية "المنسوبة إلى قبيلة حليقي التي تسكن منذ زمن قديم لا أحد يعرف تاريخة بالضبط مثلما لا يعرفون عمر أشجارهم الموغلة بالقدم"[15، ص58]. تقع قرية حليقي في الزاوية الشمالية الغربية من جبل سنجار بالقرب من الحدود السورية بين السلاسل الجبلية المطلّة على الوادي، ولكونها بعيدة وعلى حافة البلد قد تبدوا غير موجودة على خريطة العراق، إلاّ إنّها راسخة شامخة في جسدة وعلامة ذلك "إن بيوتها مبنية من صخور الجبل نفسها، كلّها متشابة بأشكالها المربعة وسطوحها المستوية ونوافذها الصغيرة وأبوابها المصنوعه من خشب خام غير مصبوغ تفصل بين مجاميع البيوت ... أشجار التين واللوز والبلوط والتوت والبطم "[15،ص60].

هذه الجغرافية تحولت إلى مسرح لأحداث الرواية التي تروي قصة حب عانى الكثير ليعيش ويأبى التكفير إلاّ أن يذبحه. وهو لا يذبح العشق والعشاق فقط بل إن هذه الأفة المتشحة بالسواد المفترس تمنح نفسها حق قلب المعادلة الحياتية؛ فها هي المدرسة التي تلقت فيها هيلين ساردة الرواية وأخيها آزاد تعليمهم بيت العلم والتربية تتحول إلى سوق لبيع الفتيات الإيزيديات، وساحة المدرسة التي يرفرف عليها العلم العراقي بكل خميس محتضناً الأطفال والشباب ليمنحهم الآمان تتحول إلى ساحة تدريب الفتيان على القتال وقطع الرؤوس.

وتلك المجلة مركز الفكر ورمز الحياة ومواكبة التطور تتحول إلى مذبح ورمز للموت حيث يقطع فيها رأس إلياس بطل الرواية.

ولكن ما الذي منح السرد الروائي جواز مواكبة الكوارث التي تحل بالبشرية؟ وكيف تمكنت الروائية من توظيف التاريخ وكأنها تشير بأصبعه إلى قدر العراقيين؛ فهي تلوّح مثلاً إلى هجمة هولاكو الذي نفذ وصية جده جنكيز خان أشبع تنفيذ، حيث استهدف أولاً وقبل كل شيء مكتبات بيت الحكمة رمز العلم الذي يتباهى به العراقيون، ورمى بنفائس الكتب في نهر دجلة حتى أسود لون مائه الشفاف.

وفي ملمح آخر تلوح إلى إبادة الإيزيديين في تركيا إبان العهد العثماني، وكأنها تشير إلى الندوب التي تركتها هذه الكوارث والحروب التي اعقبتها فشاء القدر أن تلعب المرأة العراقية دور البطولة فهي الشاهد على تلك الحروب وهي الآن" تنفذ وصية زوجها حين تذهب بكيس يحوي البدلة الخاكي والخوذة والبسطال إلى المقر"[15، ص54]. فهي دائماً من يحمل تركة الحروب، ولعلّ ما يشفع للسرد الروائي ويبيح له بتضمين تلك الإشارات أنه وحسب باختين: "جنس مفتوح مركب يسمح أو يمزج في بنيته الداخلية بين الأجناس المختلفة "الشعر، النثر، الرحلة، المذكرات، الرسالة"[16، ص358] .

تغلغلت المعتقدات الشعبية في تربة الرواية، وشاطرتها الميثالوجيا "خسوف القمر" واتسعت بنية الرواية لنسيج الروايات "قصة خنسي ورشو" مروراً إلى تصوير أبسط الطقوس والعادات التي تصور ثقافة المجتمع

الإيزيدي باعتبار النص الأدبي خطاباً ينماز بآلية داخلية، ولكنه لا يفارق السياق الذي أنتجه "فالعلاقة بين النصوص الثقافية والأدبية بخاصة، وبين السياقات الاجتماعية التي أنتجتها واضحة جداً "[17،ص17].

مثلاً اعتادت رمزية أم هيلين "أن ترنّم تلك الترنيمة الحزينة التي بين النشيد والنشيج مثلما تفعل كلما ندبت شخصاً مفقوداً، سواء كان قريباً أو غريباً"[15،ص24]. وكأن هذه الترنيمة أيقونة الاتصال الروحي.

بالمفقود قريباً كان أو غريباً؛ فبيتهم كان مفتوحاً حيث "يتسامر الجيران في كل نهاية أسبوع، وفي آخر الجلسة حين يحلّ الظلام يغنون ... وأحياناً يجتمعون في بستانهم المجاور لبيتهم مثلما يحلو لأبيها لأنه يجب أن يدعو ضيوفه"[15،ص24].

وحتى المهن هي متوارثة وكأنها طقوس ألفها الأبناء عن الآباء والأجداد فها هو شمو المطهرجي أبو هيلين يختن الأولاد بخفة ومهارة " لم يولد ولد في قريتهم وبعض القرى المجاورة إلا وحاؤوا به إلى أبيها من أجل الختان وهكذا كان يكسب رزقة" [15،ص24].

وشم الطائر جاء عنواناً لمعتقد يعتقد به سكان قرية حليقي "كان شائعاً بين أهالي قريتها أن ضياع خاتم الزاوج هو نذير شؤم قد يؤدي إلى انفصال الزوجين"[15،ص41]. لذلك استبدل إلياس وهيلين خاتم الزواح بوشم الطائر فما يشفع له أنه دائمي ولا يمكن أن يضيع؛ خشية الانفصال الذي كتب على خال هيلين بعد أن ضاع خاتم زواجه بعد شهر من الزواج.

ولكن لماذا وشم طائر؟ وأي طائر هو؟

هو طائر القبج الجميل وقد وقع سجيناً في قفص إلياس وحررته هيلين فكان رمزاً لحبهما. فأهالي قرية حليقي لا يصطادون الطيور بل إنهم يتطيرون من أكلها؛ فمن طقوسهم السنوية انهم "يقيمون طقساً سنوياً يحرقون فيه اقفاصاً خالية ويرقصون حول النار لاعتقادهم بأن ذلك الإحتفاء الذي يسمونه عيد الطيور من شأنه أن يبعث تطميناً لطيور منطقتهم "[15، 41–42] فهم يستبشرون بذلك الطقس في حلول أخبار مفرحة تطرد الشر.

" رقصة الألم" هي الأخرى طقس إعتاد علية فتيان قرية حليقي، فهم يقدمون حركات تتماهى مع حركات الطيور فيرقصون في أسراب جماعية تحاكي أسراب الطيور، ويتمايلون على أنغام حزينة تحاكي ألم الطائر المذبوح وهو يتثنى بحركات تجعل من يراه يعتقد انه يرقص.

لا تخلو بيوت قرية حليقي من الناي أو الطبل أو الطنبور، فلا غنى عن تلك الألات "وإلا كيف يمكنهم أن يعزفوا و يمرروا تلك الاغنيات أباً عن جد؟ "[15،ص42]

تلك القرية البدائية المعيشة حيث لا يمكن متابعة أخبار العالم وما يدور من أحداث لافتقادهم لأبسط مستجدات التكنولوجية بل إنهم لا يملكون حتى تلفزيون ولا تلفون ولا انترنت ولا كهرباء وحتى الماء يحصلون عليه من الينابيع المنتشرة حول القرية. عالمهم فنطازي ولكنهم اعتادوا حين يلمحون " بيتاً دونما نار تنور مشتعلة سيهرع إلى ذلك البيت بالخبز لانه يعرف بأن التنور المنطفئ لا يعني سوى أن اصحابه بلا طحين ذلك المساء"[15، ص46].

تعلو الصافرات عالية متكررةً في شفرات يتبادلها سكان حليقي فتكون أنظمة ليفسروا معاني أنواع عديدة من الإتصالات التي لا يكون من الواضح فيها المعاني[18،ص131] فقط تكون هذه الصافرات عالية ومكررة

فتعلن عن قدوم ضيف والاستعداد لحفل في المساء، وقد تكون صافرة مختلفة في نبرتها كأن تتكون من مقطعين فتعلن عن رغبة أحداهن بتناول الشاي مع جارتها فتدعوها بشفرتها الخاصة، وقد تطول الصافرة بنبرة عالية لتعلن هذه المرة عن حريق.

التطبيب هو الآخر يرثه الحليقي أباً عن جد فهم لم يذهبوا إلى المدارس وطبيبهم لا يدرس الطب بل يتوارثه عن أسلافه، "أم خيري طبيبة القرية ولو أنها لن تدرس في المدارس إنما ورثت العلم عن أبيها فتعرف كيف تعالج بالأعشاب الحصبة مثلاً تعالجها بورق الزيتون "[15،ص63].

ليس التداوي بالاعشاب مهنة للكل بل لمن ورثها عن ذويه، أما زراعة التين فهي مهنتهم لكثرة اشجار التين التي يصنعون منها أنواع الحلويات و المعجنات ولكنه ما أن تهمل بساتين التين حتى تتحول إلى السماق؛ "السماق يينتعش في التربة المهملة اليابسة التي فيها مشاكل، أوضحت له ذلك يوجد عندنا مثل يقول: "راح التين وجاء السماق" وذلك في وصف ابن عاق لأب عاقل"[15،ص63]. فالحليقين هم أقرب إلى الطبيعة التي خلقها الله وهم ينسجمون مع عناصرها في غذائهم وشرابهم ودوائهم بل حتى الأمثال التي يضربونها تنسج لحمتها من عناصر الطبيعة. وهم يحاكون جمال الطبيعة وزهورها في ما يرتدون من ازياء متشابهة وهم يحاكون في ذلك عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة "يرتدون زياً متشابهاً هو سروال عريض وسترة من نفس اللون والقماش مع حزام من قماش عريض بلون مختلف على رؤوس بعضهم طاقيات من قماش أبيض"[15،ص67].

أما ما يتعلق بالنساء فلهن الزي الخاص بهن "لم تضع الشابات أي غطاء على رؤوسهن فقط كبيرات السن وضعن عمامات الرأس العريضة"[15،ص67].

وقد تتناغم الميثالوجيا مع الموروث الثقافي للحليقيين فيتلقفون الصحون والمعالق الكبيرة والصواني ويكونون متأهبين لإنقاذ القمر خشية أن يبلعه الحوت؛ فيكون أذن شر ينبئ بالكوارث والحروب "استمرت الحروب وبمرور الأيام وازدياد عدد الموتى والجرحى في المدينة رجع الناس يتحدثون عن الحوت الذي يجلب الويلات إلى البلد، ولم يعد بوسعهم سوى أن يصعدوا إلى السطوح ويدقوا بأقوى ما استطاعوا وعيونهم شاخصة نحو السماء وهم يرددون "يا عالي بلا درج، قمرنا طايح بشدّة، نطلب منك الفرج"[15،76] .

ويحتم الموروث الثقافي أن تتزوج البنت من الخاطب الأول الذي أعطيت له الكلمة؛ فلم يعتد الحليقيون على كسر الكلمة، لما يلحق ذلك من عار، لذلك اعتذر شمو من إلياس حين طلب هيلين للزواج لأن هناك من سبقه في خطبتها "هناك رجل آخر تحدّث معي بخصوص هيلين وأنا وعدته خيراً لا أخيرّه عليك و لكن مثلما تقول البركة تُعطى لمن يسأل أولاً"[15،ص97].

في بداية شهر تموز يحتفل الحليقيون بعيد الرشاش حين يرش الحليقيون بعضهم بعضاً بالماء للتبارك بذلك" وعندما يغادر أحدهم المنطقة لغرض بعيد يرشون الماء خلفه كتعويذة من أجل السلامة"[15، ص120].

وهكذا رسمت رواية وشم الطائر عناصر الهوية الثقافية للإيزيدين في قرية حليقي حين رصدت ما أفرزه الواقع الهوياتي المتعلق بانتماءات أفراد هذا المجتمع المؤتلف بالهوية الدينية، والقومية، واللغوية والمشترك جغرافياً بذات البقعة المكانية، والمرتبط ثقافياً بذلك الطيف المركب من العادات والمعتقدات والتقاليد.

الخاتمة:

- موضوع الأنثروبولوجيا هو دراسة الإنسان، ومن هنا تداخلت مع العلوم الانسانية الأخرى، وبالتالي ارتبطت بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً.
- اتساع مجالات البحث في هذا العلم ومغادرة المجال الميداني مع بداية القرن العشرين إلى الدراسات النظرية والتطبيقية، وبالتالي تعدد مناهجه تبعاً لتعدد تخصصاته.
- علم الإناسة الثقافي هو فرع من فروع علم الإنسان العام يهتم بدراسة الثقافة من جوانبها المختلفة، فيركز على دراسة بناء الثقافات البشرية وأداءها لوظائفها في كل زمان ومكان وهو يهتم بالثقافات لأنه يسهم في الكشف عن استجابات الناس نحو مشكلات الحياة.
- الخطاب الروائي لايغادر السياق الاجتماعي الذي انتجه؛ فلحمة النسيج الروائي هي مزيج من عناصر ثقافية وأدبية تتحرك ضمن سياق اجتماعي، وهذا ما يترجم أحياناً في رواية أي عمل ابداعي آخر.
- التقاليد القبلية والعشائرية التي تحكم سطوتها على المجتمع العراقي، عادة ما تثمر عن انسانٍ حالمٍ، كل ما يشغله أن يفك أسره ويتحرر من قيود المجتمع.
- حصل السرد الروائي على جواز مواكبة الكوارث التي تحل بساحة البشرية وهذا ما أباح للروائية العراقية "دنيا ميخائيل" ان تغترف مادتها الروائية من واقع ملئ بالحوادث والنكبات موظفة بذلك ما يأرخ لأقدار العراقيين بدءً من هجمت هولاكو إلى الغزو الداعشي.

CONFLICT OF INTERESTS
There are no conflicts of interest

المصادر:

[1] قاموس الأنثروبولوجيا إنكليزي – عربي، شاكر مصطفى سليم، جامعة الكويت،ط1، 1981م.
[2] إثنولوجيا أنثروبولوجيا، فيليب لايورت وآخرون،تر:د. مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية بيروت، ط1.
[3] الأنثروبولوجيا الثقافية، مارفن هاريس، تر: السيد احمد حامد، ج1، 1986م.
[4] مدخل إلى علم الانسان (الأنثروبولوجيا)، د. عيسى الشماس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م.
[5] معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، بياربونت وآخرون، تر: د. مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ط2، 2011م.
[6] ما الأنثروبولوجيا، د. قيس النوري، دائرة الشؤون الثقافية – بغداد، 1986م .
[7] الأنثروبولوجيا الاجتماعية، عبد الحميد لطفي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1979م .
[8] مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية، أحمد أبو هلال: 1،الأنثروبولوجيا الإجتماعية، المطابع التعاونية عمّان، 1974م.
[9] قصة الأنثروبولوجيا – فصول في تاريخ الانسان، حسين فهيم، عالم المعرفة، الكويت، 1986م.

[10] الأنثروبولوجيا العامة، د. محمد إسماعيل قباري، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط1، 1973 .
[11] الأنثروبولوجيا الثقافية، محمد الخطيب، دار علاء الدين للنشر، دمشق، 2008م.
[12] الأنثروبولوجيا وتنمية المجتمعات المحلية (علم الإنسان)، د.شاكر حسين الخشالي، المطبعة المركزية، العراق، ط1، 2014م.
[13] مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، بيلز رالف وأخرون: تر: محمد الجواهري، دار النهضة، القاهرة، 1977م.
[14] سوسيولوجيا الأدب، بول آرون وألان فيالا، تر: محمد علي مقلد، مراجعة: حسن الطالب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2013م.
[15] رواية (وشم الطائر)، دنيا ميخائيل، دار الرافدين، ط1، 2020.
[16] البعد الأنثروبولوجي للنص الأدبي، داود محمد، http://www.crasc-dz.org/article-853.html.
[17] تحليل النص السردي لتقنيات ومفاهيم، محمد بو عزة، منشورات الاختلاف، ط1، 2010م .
[18] النقد الثقافي. تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، آرثر ايزابرجر، تر: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المجلس الاعل للثقافة، 2003م.